هل يمكن التمييز بين الإحساس والإدراك ؟

1/ مقدمة (طرح الإشكالية):

يعرف الإحساس بأنه الشعور الناشيء عن تنبيه إحدى الحواس بمؤثر ما ، أما الإدراك فهو عملية تأويل الإحساسات تأويلا يزودنا بمعلومات عما في عالمنا الخارجي من أشياء ، غير أن هناك من الفلاسفة من يفصل بين الإحساس و الإدراك ، في حين يرفض آخرون التمييز بينهما ، و يرجعون هذه العملية إلى عوامل خارجية موضوعية ، فهل معارفنا الإدراكية حول العالم الخارجي مردها إلى الإحساس أم الإدراك ؟ و بمعنى آخر هل يمكن الفصل بينهما ؟

2/ التوسع (محاولة حل المشكلة):

القضية :

يرى الفلاسفة العقلانيون و التجريبيون أنه من الضروري التمييز بين الإحساس و الإدراك ، فمعرفة العالم الخارجي إما أن يتقدم فيها العقل على الحواس و إما أنه يتأخر و هذا ما أثار الخلاف بين المذهبين .

الحجج والبراهين :

و في رأي العقليين أن الإحساس يقدم صورا لا معنى لها كتلك التي توجد لدى الحيوان ، أما عند الإنسان فتتدخل الأحكام الذهنية مفسرة ما يحدث خارج الذات يقول ديكارت << إني حيث أنظر من النافذة أشاهد رجالا يسيرون في الشارع ، مع أنني لا أرى بالعين المجردة سوى قبعات و معاطف متحركة ، و رغم ذلك أحكم بأنهم ناس >>

يرى آلان بأننا لا ندرك بالحواس بل بالعقل يقول عندما أنظر إلى الشكل أحكم عليه بأنه مكعب ، رغم علمي بأن للمكعب 6 أوجه و 12 ضلعا ، و أنا لا أرى من الشكل إلا 3 أوجه و 9 أضلاع ، و رغم ذلك أحكم عليه أنه مكعب ، لذا يقول: "بأن الشيء يعقل و لا يحس" .

كما أن أخطاء الحواس فيما يرى العقليون ينبغي أن تخضع لتأويل الأحكام العقلية، فالعصا المغموسة في الماء تبدو للعين في هيئة منكسرة ، وعن هذا الخداع البصري يقول ديكارت :" فقد لاحظت مرات عديدة أن الأبراج التي كانت تلوح لي مستديرة عن بُعد ، تلوح لي مربعة عن قرب "

و الإحساس هو أدنى قيمة معرفية من الإدراك ، لأن الإدراك يحصل بتوظيف جملة من الوظائف العقلية العليا : كالتذكر والإرادة والانتباه و التخيل و هذا ما يؤكده مين دوبيران عندما يقول : الإدراك يزيد على الإحساس بأن آلة الحس فيه تكون أشد فعلا و النفس أكثر انتباه"

أما النظرية الحسية فتؤكد أن الإدراك لا يكون إلا بالحواس ، و العقل لا يحتوي على أي شيء إلا ما تمده به الحواس من خبرات و تجارب وهذا ما يعتقد به الرواقيون و الفلاسفة التجريبيون ، فهم يجمعون على أنه" من لم يحس لا يعرف" يقول جون لوك :" إن الفكر لا يدرك الأشياء مباشرة ، بل بواسطة ما لديه من معان حسية "
والعقل في نظر الحسيين يولد صفحة بيضاء ، والتجربة هي التي تخط عليها الخبرات والمعارف .

و جميع هذه الحجج السابقة تؤكد أن كل من الفلاسفة العقليين والحسيين يفصلون بين الإحساس و الإدراك أثناء تفاعل الإنسان مع محيطه الخارجي .

النقد :

لكن إمكانية الفصل بين الإحساس و الإدراك بشكل مطلق أمر غير ممكن باعتبار أن الإدراك يعتمد على الحواس . حيث قال التهانوي : " الإحساس قسم من الإدراك " وقال الجرجاني : " الإحساس إدراك الشيء بإحدى الحواس "

نقيض القضية :

و بخلاف العقليين والحسيين يرفض أنصار المذهبين الجشطالتي و الظواهري التمييز بين مفهومي الإحساس و الإدراك ، ويؤكدون على دور العوامل الخارجية في حدوث عملية الإدراك .

الحجج والبراهين

وهم يؤكدون أن " الشكل العام للصورة هو الذي يحدد معنى الإدراك " فنحن ندرك صورة الشجرة قبل الأغصان و الأوراق ، و صورة الوجه قبل العين و الأنف ،
كما أن الأنغام الموسيقية لا قيمة لها إلا في تواصلها ،فلا ندرك كل نغمة على حدى ،
كذلك إذا شاهدنا الأمطار وهي تسقط فلا نشاهد كل قطرة على حدى ، بمعنى أن الصيغ الخارجية هي التي تفرض قوانينها علينا و تؤثر على إدراكنا ، .ومن بين هذه القوانين : قانون التشابه ، التقارب ، الإغلاق ...

فقانون التقارب يتأكد مثلا في معرفتنا لنوع الشكل الهندسي المثلث بمجرد رؤيتنا لثلاثة نقاط متقاربة .

كما أن الظواهريين لا يميزون بدورهم بين الإحساس و الإدراك .
و يؤكدون أن عملية الإدراك تنطلق من تجربتنا المباشرة للعالم ، و ما يؤكد ذلك أن إدراكنا للعالم الخارجي لا يكون ثابتا ،بل متغيرا حسب حالتنا النفسية ، لذلك يقول ميرلوبونتي :" إن العالم الموضوعي ليس ما أفكر فيه و إنما هو العالم الذي أحياه " ففي حالة الفرح يبدو العالم لنا جميلا وممتعا ، وفي حالة الحزن ، يبدو كئيبا ، و مملا .

النقد :
لكن لو كان الإدراك يتوقف على العوامل الموضوعية لكان واحدا عند الجميع ، لكن الواقع يثبت عكس ذلك ،فإدراك الفنان للطبيعة يختلف عن إدراك الفلاح لها ، و يختلف عن إدراك المهندس المعماري لها أيضا ، فكل شخص يدرك الأشياء من زاوية اهتمامه ما يؤكد وجود عوامل ذاتية تتحكم في إدراكنا للأشياء .
و من جهة أخرى فلا يمكن المبالغة في رد عملية الإدراك انطلاقا من تجربتنا الشعورية ، و معايشتنا الفعلية للعالم بل هناك أسباب خفية قد تتحكم في عملية إدراكنا للعالم الخارجي يمكن ردها إلى اللاشعور كما يؤكد أنصار التحليل النفسي .

التركيب :
و الواقع إن العملية الإدراكية تقتضي وجود فصل منهجي بين ما تنقله الحواس لنا من أشياء و محسوسات خارجية وبين تأويل هذه الإدراكات عقليا ، كما لا يمكن استبعاد تأثير شكل وصورة الأشياء الخارجية في تحديد إدراكاتنا .

3/ الخاتمة :
ومما سبق نخلص إلى أنه لا يجب حصر عملية الإدراك في ذات الشخص أو الاقتصار على العوامل الخارجية دون العوامل الذاتية ، بل ينبغي الاعتقاد بأن كل إدراك تابع لطبيعة البنية النفسية والفيزيولوجية للشخص من جهة ، و لطبيعة الشيء المدرك من جهة أخرى .

الأستاذ بوشويحة بوحركات ـ ثانوية بن سليمان بوعمامة ـ بشار